مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(١ كورنثوس ٨: ٨-١٣؛ ٩:١-٣)

يا إخوةُ إنَّ الطعامَ لا يُقرِّبُنا إلى الله لأنَّا إن أكلنا لا نَزيدُ وإن لم نأكلْ لا نَنقُص* ولكن انظُروا أن لا يكونَ سلطانُكم هذا مَعثرةً للضُّعفاء* لأنَّهُ إن رآكَ أحدٌ يا مَن لهُ العلمُ متَّكِئًا في بيتِ الأوثانِ أفلا يتقوَّى ضميرُهُ وهو ضَعيفٌ على أكلِ ذبائحِ الأوثان* فيهلِكَ بسبَبِ علمِكَ الأخُ الضعيفُ الذي ماتَ المسيحُ لأجلِه* وهكذا إذ تُخطِئون إلى الإخوةِ وتجرَحون ضمائرهم وهي ضعيفةٌ إنَّما تُخطِئون إلى المسيح* فلذلك إن كان الطعامُ يُشكِّكُ أخي فلا آكُلُ لحمًا إلى الأبدِ لئلاَّ أُشكِّكَ أخي* ألستُ أنا رسولاً. ألستُ أنا حرًّا. أما رأيتُ يسوعَ المسيحَ ربَّنا. ألستُم أنتم عملي في الرب* وإن لم أكُنْ رسولاً إلى آخرينَ فإني رسولٌ إليكم. لأنَّ خاتَمَ رسالتي هو أنتم في الرب.

القديس صفرونيوس بطريرك أورشليم

في الحادي عشر من شهر آذار تعيّد كنيستنا المقدسة لأبينا الجليل في القديسين صفرونيوس بطريرك أورشليم. وُلد قديسنا في دمشق حوالي العام ٥٥٠ م. من أبوين تقيّين عفيفين. تمتّع صفرونيوس بطاقات عقلية كبيرة وبموهبة شعرية فذّة، وجمع بين الحكمة والعفة وأتقن الفلسفة فلُقِّبَ «بالحكيم». فبعد أن أتقن الحكمة العالمية أراد أن يكتسب الحكمة الروحية، لذا خرج إلى أورشليم وأخذ في زيارة الأديرة والمناسك. وفي إحدى زياراته للأديرة المنتشرة في جوار أورشليم دخل إلى دير القديس ثيودوسيوس بالقرب من بيت لحم، وهناك التقى راهباً دمشقياً اسمه يوحنا الملقب «موسْخوس» وكان كاهناً فاضلاً قديراً جداً في العلم وعلى حكمة روحية أخّاذة. وكأني بصفرونيوس قد وجد ضالته فالتصق بيوحنا التصاق الإبن بأبيه والتلميذ بمعلّمه. ومذذاك تبعه في دخوله وخروجه إلى الأديرة والمناسك، لزيارة الآباء القديسين والانتفاع منهم وجمع أخبارهم. وقد جمعا كلاهما مادة الكتاب المعروف «بالمرج الروحي» الذي حظي ببركة المجمع المسكوني السابع.

انتقل صفرونيوس ويوحنا إلى انطاكية قبل الغزو الفارسي لها، وأخذا يتنقلان بين الآباء الفضلاء يجمعان أخبارهم وتعاليمهم الروحية. ولما أخذت الجيوش الفارسية تقترب من أنطاكية انتقلا إلى الإسكندرية لمتابعة السعي الذي باشراه.

في الإسكندرية، وبعد داء ألمَّ بصفرونيوس ولم يكن يتوقع أن يُشفى منه، صيّره يوحنا راهباً. لكن، بنعمة الله، تعافى القديس صفرونيوس وأخذ يجاهد أكثر فأكثر من أجل خلاص نفسه والآخرين. وقد وضع مواهبه بعد ذلك تحت تصرّف بطاركة الإسكندرية وعاونهم ومنهم القديس يوحنا الرحيم الذي أحب صفرونيوس ويوحنا حبًّا جماً.

عندما أخذ الفرس يتهدّدون الإسكندرية خرج القديس يوحنا الرحيم إلى القسطنطينية يرافقه كلٌّ من صفرونيوس ويوحنا إلاّ أنه رقد في الرب قبل وصوله ودُفن في قبرص. أما يوحنا وصفرونيوس فارتحلا إلى روما. هناك رقد يوحنا (٦١٩ م.) فرافق صفرونيوس الجثمان إلى

العدد ٢٠٠٥/١٠

الأحد ٦ آذار

أحد مرفع اللحم

تذكار القديسين الإثنين والأربعين شهيداً الذين في عمورية

اللحن السابع

إنجيل السَحَر السابع

الإنجيل

(متى ٢٥: ٣١-٤٦)

قال الربُّ متى جاءَ ابنُ البشر في مجدهِ وجميعُ الملائكةِ القديسين معهُ فحينئذٍ يجلسُ على عرش مجدهِ* وتُجمَعُ إليهِ كلُّ الأممِ فيميّزُ بعضَهم من بعضٍ كما يميّزُ الراعي الخرافَ من الجداءِ* ويُقيم الخرافَ عن يمينه والجداءَ عن يسارهِ* حينئذٍ يقولُ الملكُ للذينَ عن يمينهِ تعالَوْا يا مباركي أبي رِثوا المُلكَ المُعَدَّ لكم منذ إنشاءِ العالَم* لأنّي جُعتُ فأطعمتموني وعطِشتُ فسقيتموني وكنتُ غريبًا فآويتموني* وعُريانًا فكسَوْتموني ومريضًا فعُدتُموني ومحبوسًا فأتيتم إليَّ* حينئذٍ يُجيبهُ الصِدّيقون قائلين يا ربُّ متى رأيناك جائعًا فأطعمناك أو عطشانَ فسقيناك* ومتى رأيناك غريبًا فآويناك أو عُريانًا فكسوناك* ومتى رأيناك مريضًا أو محبوسًا فأتينا إليك* فيُجيبُ الملكُ ويقولُ لهم: الحقَّ أقول لكم بما أنّكم فعلتم ذلك بأحد إخوتي هؤلاء الصغارِ فبي فعلتموهُ* حينئذٍ يقول أيضاً للذين عن يساره إذهبوا عنّي يا ملاعينُ إلى النار الأبديَّةِ المُعَدَّةِ لإبليس

أورشليم إلى دير القديس ثيودوسيوس حيث دُفن.

بقي قديسنا في أورشليم، وكانت آنذاك في يد الفرس وكان بطريركها زكريا في الأسر وكان الصليب المكرم في حوزة الفرس أيضاً. لم يطل الوقت حتى أُعيد عود الصليب والبطريرك زكريا إلى أورشليم بعدما حقّق الإمبراكور هرقل انتصارات على الفرس وفرض عليهم شروط للصلح.

مع بروز الهرطقة القائلة بأن للرب يسوع المسيح مشيئة واحدة إلهية، انكفأ القديس صفرونيوس للتصدي لها، فانطلق عام ٦٣٣، وبالرغم من تقدمه في العمر، من أورشليم إلى الإسكندرية ثم إلى القسطنطينية لإقناع بطركَي المدينتين للعدول عن القول بالمشيئة الواحدة في المسيح والتأكيد على ان للرب يسوع مشيئة إلهية ومشيئة بشريَّة.

عام ٦٣٤ انتخب بطريركاً على أورشليم وجرى تنصيبه قُبيل عيد الميلاد، إلا انه لم يتمكن من المجيء إلى بيت لحم مع المؤمنين في العيد بسبب احتلال العرب المسلمين للمدينة، وقد أشار إلى ذلك في عظة الميلاد.

وعلى أثر حصار أورشليم من قِبَل العرب المسلمين فاوض صفرونيوس الخليفة عمر بن الخطّاب، فأمّنه على المسيحيين وأماكن العبادة التابعة لهم وصلبانهم وممتلكاتهم، وحماهم من الإكراه في الأمور الدينية طالما يدفعون الجزية المفروضة عليهم وذلك بموجب اتفاق خطي، وفُتحت أبواب المدينة لهم.

لقد ترك القديس صفرونيوس إرثاً لاهوتياً وروحياً كبيرين، إلاّ أن قسماً منه قد فُقد. له مقالات عدّة وكتابات تعليمية وأناشيد تدل على مواهبه الشعرية والموسيقية. من أعماله ترتيلة «صوت الرب على المياه...» وصلاة تقديس الماء اللتان تتليان في عيد الظهور الإلهي، وترتيلة «رؤساء الشعوب اجتمعوا على الرب...» التي تضم يوم الخميس العظيم. كذلك وضع صفرونيوس العديد من أخبار القديسين مثل حياة القديسة مريم المصرية وأخبار القديسين الصانعي العجائب والعادمي الفضة، كيرُس ويوحنا اللذين شفياه من داءٍ ألمَّ بعينيه. رقد القديس صفرونيوس بالرب عام ٦٣٩.

لم يدخل عمر بن الخطاب إلى أورشليم دخول الفاتح إنما دخول الحاج، إذ كان المسلمون يعتبرون أورشليم مدينة مقدسة. وعرض البطريرك صفرونيوس على عمر الصلاة في كنيسة القيامة، فرفض قائلاً له إن المسلمون سيقولون أن عمر صلّى هنا ويستولون على الكنيسة. فعرض عليه صفرونيوس عندئذٍ الصلاة مكان الهيكل وكان قد صار تلّة مقفرة، فنظفها هو ومَن معه وأقام الصلاة. وفي هذا المكان أُقيم فيما بعد المسجد الأقصى.

الصمت المقدس

«إن كان لسانك متعوِّداً على كثرة الكلام فقلبك منطفئ من حركات الروح النيِّرة. أما إذا كان فمك ساكتاً بهدوء فقلبك يشتعل دمعاً من حرارة الروح. إن كنت تتكلّم بلسانك وقلبك لا يتحرَّك بالصلاة فكلامك هو خسارة. سكِّت لسانك يتكلَّم قلبك... وسكِّت قلبك ليتكلَّم الله» (الشيخ الروحاني).

بعد فضيلة ضبط اللسان ينتقل الأدب الروحي للتحدُّث عن «الصمت المقدس» كتعبير عن حالة يحياها الإنسان تُخيِّم عليها الحضرة الإلهية فتكون فيها النفس متفاعلة مع نعمة الله المنسكبة عليها والحالَّة فيها.

وملائكَته* لأنّي جُعتُ فلم تُطعِموني وعطِشتُ فلم تَسقوني* وكنتُ غريبًا فلم تُؤووني وعُريانًا فلم تَكْسوني ومريضًا ومحبوسًا فلم تَزوروني* حينئذٍ يُجيبونهُ هم أيضًا قائلين يا ربُّ متى رأيناك جائعًا أو عطشانَ أو غريبًا أو عُريانًا أو مريضًا أو محبوسًا ولم نَخْدِمْكَ* حينئذٍ يُجيبهم قائلاً الحقَّ أقولُ لكم بما أنّكم لم تفعلوا ذلك بأحدِ هؤلاءِ الصغار فبي لم تفعلوهُ* فيذهبُ هؤلاءِ إلى العذابِ الأبديّ والصِدّيقونَ إلى الحياةِ الأبديَّة.

تأمل

لقد دعا الرب العاملين بالرحمة خرافاً. عن طريق هذه الصفة أكّد على التشبّه به، وفي الوقت نفسه أكّد على كلّ فضيلة كانت عندهم، أي عند أولئك المستعدّين دائماً للموت من أجل الخير. كما كان هو «الخروف الذي سيق إلى الذبح وكحمل بريء أمام الذي يجزّه هكذا لا يفتح فاه» (أع ٣٢:٨، وإشعيا ٧:٥٣).

على هذه الصورة يمدح عمل الرحمة أو محبة البشر على الأخص، لأنه ينبغي أن تكون هذه الفضيلة نموذجاً وثمراً للمحبة،

هذا التفاعل يتطلَّب إصغاءً كاملاً للكلام الإلهي، وهذا لا يحصل إلا حينما يدخل الإنسان في صمت جسدي أي صمت الشفاه، ومن بعده في صمت روحي، أي صمت العقل والقلب، فيصبح حضور الله وحده الفاعل في هذا الإنسان.

مشكلة الإنسان منذ القديم، وربما اليوم أكثر من أي وقت مضى، هي الضوضاء والصخب اللذان يرافقان كل مجالات حياته اليومية المعاصرة، من صوت الموسيقى العالية والتلفزيون وضجيج الشارع وسرعة السيارات إلخ... شقاء الإنسان انه يزج نفسه في وسط موكب البشريَّة الصاخب كأنما مسَّه نوع من جنون الحياة، ولا يحاول تخليص نفسه من وسط هذا التيار الجارف. لا بل يوعد الآخرين لمشاركته هذا المسير. المشكلة في كل هذا انه لا يعود للإنسان وقت صمت لكي يختلي مع ذاته ليعرف حقيقة إنسانيته ودعوته الإلهية التي هو مدعو أن يحياها. كيف له أن يواجه الأمور الأساسية والجوهرية التي تطاول معنى حياته إن لم يصمت ويختلي بذاته؟ إذاً، من يريد أن يعرف حقيقة نفسه ودعوتها، وأن يدرك مقدار عريه وخزيه، عليه أن يدخل إلى مخدعه ويغلق بابه ويجلس صامتاً ويفحص أعماق نفسه فيكتشف ما إذا كانت ثمار حياته جيدة أم فاسدة. بداية الصمت العزلة عن كل ضوضاء مزعجة للنفس.

الصمت المقدس يبدأ أولاً بصمت الشفاه. كلما صمت الإنسان كلما تجنَّب الإنزلاق إلى إدانة الآخرين وإلى الكلام البطال. السكوت بحسب القديس إسحق السرياني يُكسِب الحكمة ويجمع ملكات الفكر للمعرفة، وإذا انقطع الإنسان عن كثرة الحديث مع الناس فهو يرجع إلى ذاته ويقوِّم تدبير سيرته حسناً أمام الله. صمت الشفاه يسمح للإنسان بأن يختلي مع نفسه إذ ينقطع عن ما قد يؤدي بشفاهه إلى النطق بما لا يرضي الله. إن شقاء الإنسان هو عدم استطاعته البقاء ساعة واحدة مع نفسه. لذا عليه أن يُسكِت شفاهه وينتقل إلى مرحلة الصمت الداخلي حيث يقيم حاضراً في ذهنه بينه وبين ما رآه وسمعه خارجاً وما قاله فلان وما قاله هو. يختلي بذاته ويجمع ذاته مع بعضها ويحاول إعطاء كل الأفكار المسبِّبة لتشتته الروحي. مهم جداً أن يترافق صمت الشفاه مع صمت العقل، أي ضبط الفكر والخيال، إذ ماذا ينفع من الخلق شفتيه واطلق العناء لخياله لإدانة إخوته والسفر في بحر الأهواء.

متى صمت الإنسان وجلس في عزلة مع نفسه مصلياً وفاحصاً أعماق نفسه، واختلى إلى الله وحده دون أي شيء آخر وجلس في حضرته صامتاً صمتاً مقدساً، فإنه سوف يرى صورته في مرآة الله ويكتشف قبح منظره، وكم هو لا يشبه الله في شيء. متى جلس الإنسان صامتاً وفاحصاً يكتشف خطاياه وهذه نعمة كبيرة لأنها الطريق الوحيد الموصل على الشفاء منها. في الصمت يرى الإنسان عيوبه وخطاياه واضحة أمامه، وهناك يجد الفرصة السانحة لكي يبكي ويغسل بدموعه قذارة خطاياه: «الصمت هو تطهير القلب وإعداده للدخول في منطقة النور الإلهي غير المنطوق به الذي يفوق كل شعور وإحساس وتصوير» (القديس غريغوريوس بالاماس).

ان العزلة والصمت ليسا غاية بحد ذاتهما بل وسيلة لكي يجد فيهما الإنسان الرب. إن الثرثارين لا يرثون ملكوت الله، إذ كيف يسمعون نداء الرب الذي يريد أن يخبرهم حديث القلب في الصمت؟ صمت الروح يأتي

وهي الرأس الذي يفترض الفضائل الأخرى كلّها عند الذي هو مزمع أن يرث ذلك الملكوت الأبدي.

هذا ما أظهره الرب في مثل العذارى العشر (متى٢٥: ١١) لأنه لا يُدخل إلى الخدر الإلهي العذارى كلّهن بل المتحلّيات بالعفة التي تُكتسب بالنسك والإمساك والجهادات المتنوّعة المبذولة من أجل الفضيلة. بالإضافة إلى ذلك كلّه يتكلّم عن المصابيح التي تمسكها العذارى في الأيدي المشيرة إلى ذهنهنّ، وما في هذا الذهن من معرفة ساهرة موطّدة في عمل النفس، مبنية بواسطة الأيدي، مقدَّمة لله عن طريق العيش الفاضل،ومرتبطة بإشراقات الرب وأنواره.

ولكن كل ذلك يحتاج إلى زيت غزير يمكن للمصابيح أن تبقى شاعلة. الزيت هو المحبة التي هي قمة الفضائل. أي كما أنك عندما تصنع أساسات وتبني عليها جدراناً ولا تضيف سقفاً تجعل كل ما بنيت بلا فائدة، كذلك إن اكتسبت الفضائل كلّها دون الحصول على المحبة جعلتَ مسعاك كلّه باطلاً لا فائدة منه. إلا أن سقف البيت بدون العناصر الأخرى التي تسنده لا يستطيع وحده أن يقوم.

القديس غريغوريوس بالاماس

بالسلام الداخلي وتكون نتيجته ان الإنسان يختبر حضور الله في داخله وعذا أعظم من غياب الكلام والأفكار والإدانات.

ملاحظة لا بد منها وهي ان آباء الكنيسة شدَّدوا على ان الصمت نافع في كل الأحوال حتى ولو كان الإنسان لا يتفوَّه بالأمور القبيحة. القديس إسحق السرياني يقول: «كل من هو كثير الكلام حتى ولو كان عالِماً بأمور كثيرة، اعلم انه فارغ من داخل». والقديس ذياذوخس يقول: «إذا فتحنا باب الحمام، فإنه يفقد حرارته بسرعة: هكذا تريد النفس أن تتكلَّم بكثرة – حتى ولو لم تقل غير الكلام الجيد – فإنها تبدد ذاكرتها بسرعة، وتفقد ذكر الرب. إنها تتبخَّر إلى الخارج من ذاك الباب الذي يخرج منه الكلام الكثير». الصمت إذاً هو أب جميع الأفكار الجيدة.

بعد أسبوع ندخل رحلة الصوم الأربعيني المقدس ونبدأ بتلاوة صلاة القديس افرام السرياني عدّة مرات في صلواتنا اليومية. هذه الصلاة تقول: أيها الرب وسيِّد حياتي أعتقني من روح البطالة والفضول وحب الرئاسة والكلام البطال، وانعم عليَّ بروح العفة واتضاع الفكر والصبر والمحبة، نعم يا ملكي وإلهي، هَبْ لي أن أعرف ذنوبي وعيوبي وأن لا أدين إخوتي فإنك مبارك إلى الأبد». نتلو هذه الصلاة كل فترة الصوم لنستحق معاينة القيامة. لكن كيف لنا أن نعرف ذنوبنا وعيوبنا إن لم يُبعد عنا الرب الكلام البطال، أي الثرثرة والمباحثات والمناقشات التي لا تنفع. لنتعلَّم الصمت فالصمت شرط أساسي للصلاة الجيدة وذلك لكي تكلون صلواتنا في هذا الموسم المقدس مثمِّرة.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb